فلسطين..
الرمـــز

«يعتبر موقفًا ظالمًا، أيُّ موقف يستغل(أ) فيه (ب) بشكل محسوس، أو يعوق سعيه نحو تأكيد الذات بوصفه شخصًا مسئولاً، ويشكل مثل هذا الموقف فى ذاته عدوانًا؛ لأنه يعوق موهبة الفرد الوجودية والتاريخية لأن يصبح أكثر إنسانية، ومع نشوء علاقة تقوم على الظلم يكون العدوان قد بدأ بالفعل ، ولم يحدث فى التاريخ على الإطلاق أن يكون المظلومون هم الذين بادروا بالعدوان، وينشأ العدوان عن طريق هؤلاء الظالمين المستغلين الفاشلين فى الاعتراف بالآخرين بوصفهم بشرًا، وليس عن طريق هؤلاء المظلومين المستغَلين والمهمّشين. فعل التمرد من جانب المظلومين - بوعى أو بدون وعى - هو فعل - فى غالب الأحيان - ذو عنف يماثل العنف الأوّلى من جانب الظالم، وحيثما يقمْ عدوان الظالم بمنع المظلوم من بلوغ كامل إنسانيته، يقمْ رد فعل الأخير على هذا العدوان على قاعدة من الرغبة فى السعى على الحصول على الحق فى أن يكون إنسانًا»

باولو فيريير - علم أصول معرفة المظلومين.

لا وجود فى الإسلام لدرجات تتحدد بها قيمة الناس أو معاناتهم طبقًا لقربهم الجغرافى من المواقع أو المناطق التاريخية، ولا وجود لفرق بين حالة الشعب الفلسطينى، وبين تلك الخاصة بشعب كشمير، أو الأكراد، أو الأفغان، أو البوسنيين، أو النيچيريين، أو الفيليبينيين، أو الأمريكيين . . . إلخ.

ويمثل النزاع الإسرائيلى - الفلسطينى بشكل رئيسى، مشكلة سياسية مدنية

بالنسبة إلى المسلمين الأمريكيين، مثلما ينبغى أن تكون بالنسبة لجميع الأمريكيين، وعلى الرغم من وجود روابط تاريخية يهودية ـ مسيحية ـ إسلامية بالأرض فإن الاهتمام الرئيسى للمسلمين الأمريكيين ينصب على المعاناة الإنسانية لكلا الشعبين الفلسطينى والإسرائيلى.

السبب الكامن وراء أن فلسطين تمثل للأمريكيين قضية مدنية له جانبان: **الجانب الأول** هو أن التأييد والدعم الأعمى من قبل الولايات المتحدة للتصرفات الإسرائيلية، يموّل بالكامل من دولارات دافع الضرائب الأمريكى.

الجانب الثانى فى تحمل المسلمين الأمريكيين للوطأة الثقيلة لهجمات «منظمات الضغط» التى تشجع هذه السياسة، ولا يختلف هذا الوضع عن الرأى العام المعارض خلال حرب ڤيتنام، ومن المسلم به أننا لا نرغب فى مصرع أبنائنا فى حروب عبثية، وعن المعارضة للانتشار النووى الدولى (لتأثيراتها السلبية على أمننا القومى وعلى البيئة) والدعم الأعمى لإسرائيل، هما ببساطة يسببان الضرر للمصالح الأمريكية على اتساع العالم، وبالأخص فى الشرق الأوسط.

جذور الصهيونية

كشف «تيودور هرتزل» (وهو ملحد ينحدر من أسرة يهودية علمانية) الستار فى مؤتمر فى بازل بسويسرا عام ١٨٩٥م، عن مشروع لإقامة دولة يهودية مستقلة، واستغل «هرتزل» العواطف التى تؤججها الصهيونية الروحية، والتى كانت تراوغ العقل اليهودى فى ذلك الوقت، وكان ينوى أن يستبدل بها الصهيونية السياسية، التى تهدف إلى إقامة وطن يهودى على أرض لا يشكل قاطنوها عقبة حقيقية.

ولم تحدد فلسطين لهذا المشروع فى ذلك الوقت، وأوصى «هرتزل» بموزمبيق أو بالكونغو لتكون أيتهما «أرض الوطن». وعلى مدار العشرين عامًا التالية، برزت بدائل مثل قبرص، والأرچنتين، وأوغندا. وانزعج «هرتزل» نتيجة رد فعل يهود العالم تجاه فكرة الوطن اليهودى بوصفها حقيقة سياسية ناجمة عن تاريخهم كضحايا للاضطهاد. وعلى مقربة من نهاية القرن التاسع عشر، أصدر مؤتمر للحاخامات فى فيلادلفيا بيانًا يعبر عن أن مهمة اليهود الروحية تتعارض مع إنشاء

كيان سياسى يهودى، واستقر «هرتزل» على اختيار فلسطين، من أجل التعامل مع حقيقة وجود تقاعس، فى حين تمتاز فلسطين بوصفها المكان الوحيد الذى يمكن أن يشعل العواطف الدينية الأصولية، وارتفعت فى الحال راية الدين، واشتعلت العواطف وأحرز «هرتزل» الانتصار، وتقوم الأيديولوچية الصهيونية السياسية على أساس حق اليهود المطلق فى فلسطين، القائم على الحق التاريخى الدينى عندهم.

«لقد عاش اليهود بالفعل، فى الحقيقة، فى هذه المنطقة ذات مرة فى تاريخهم الطويل؛ وعاشوا هناك خلال فترتين، يصل مجموعهما إلى مئات قليلة من السنين، ويسجل التاريخ أنه عند دخول اليهود إلى فلسطين، لم يجدوها خالية، وأنهم عندما غادروا فلسطين إلى الشتات، لم يتركوها خالية، وكان الفلسطينيون موجودين فى هذه الأراضى، قبل وبعد وأثناء حلول اليهود بفلسطين حسبما هو مذكور فى العهد القديم» (١).

وفى عام ١٩٠٥م، أى بعد سنة من وفاته، تبنى المؤتمر اليهودى العالمى فكرة الوطن اليهودى فى فلسطين، ونشر الصهاينة، خلال هذا المؤتمر، الفكرة الوهمية التى ابتلعها الكثيرون حتى وقتنا المعاصر عن «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض»، وكانت إجابة رئيسة الوزراء الإسرائيلية فى عام ١٩٦٩م على سؤال أحد المراسلين عن حقوق الفلسطينيين هى: «مَن الفلسطينيون؟ أنا لا أراهم».

تخيل إذا أنكر زعيم قوة عسكرية تحتل مزرعتك، ومنزلك، وعملك، أصل وجودك؛ ففى عام ١٨٩٧م، شكّل العرب (مسيحيون ومسلمون ويهود) ما مجموعه ٩٥٪ من التعداد السكانى الفلسطينى، وكانوا يملكون ٩٩٪ من الأراضى. فى عام ١٩١٧م نص وعد بلفور على: «تنظر الحكومة البريطانية بعين العطف إلى إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، على ألا يؤدى ذلك إلى الإجحاف بالحقوق المدنية والدينية للمجموعات غير اليهودية التى تعيش فى فلسطين»، وكان التعداد الفلسطينى فى عام ١٩٢٢م هو ٧٥٧,٠٠٠ (شكّل العرب المسلمون والمسيحيون منهم نسبة ٨٨٪). وعلى الرغم من أن الهجرة كانت قد

(١) حسان حتحوت: هكذا سوف أقف بين يدى الله. ص ٢٠١.

بدأت (ومستمرة إلى يومنا هذا)، فلا يزال هناك رد فعل يهودى رافض لإقامة الدولة.

الشغب المضاد للصهيونية فى عامى ١٩٢٠م، و ١٩٢٩م فى انجلترا، والذى أعقب الشغب الذى قام فى شيكاجو من خلال الطائفة اليهودية التى أظهرت صدقها وخوفها من ممثل اليهود «مناحم بيجين»، والذى اعتبرته إرهابيًا.

العنصرية

يؤكد «إسرائيل شاحاك» على أن «موسولينى» قد أنشأ مجموعات من «حركة الشباب لمراجعة الصهيونية» (BETAR) ذوى القمصان السوداء على غرار الجماعات الفاشية التابعة له، وعندما وصل «بيجين» إلى زعامة (BETAR)، فقد فضل ارتداء القمصان ذات اللون البنى الخاصة بجماعات «هتلر» وهو القميص الذى ارتداه بيجين وجميع أعضاء (BETAR) فى كل الاجتماعات والمسيرات، حيث تبادلوا التهانى كما كانوا يفتتحون ويختتمون الاجتماعات بالتحية والسلام الفاشى.

ووفقا للمؤرخ «أرنولد يوينبى»، فبحلول عام ١٩٣١م، كانت الصهيونية العمالية قد أخرجت إلى الوجود محمية خاصة باليهود، وهو ما كان يسمى فى جنوب أفريقيا بالعزل العنصرى.

وكان «رفائيل إيتان» رئيس الأركان الإسرائيلى السابق، يرمى أى شخص يتهم البيض فى جنوب أفريقيا بالعنصرية، بأنه كاذب؛ ذلك لأنهم هم «السود» الذين يرغبون فى السيطرة على الأقلية البيضاء، تمامًا مثلما يرغب العرب فى السيطرة على الإسرائيليين، ويعتبر «شاحاك» مرجعية معتبرة فى تاريخ اليهود والصهيونية إضافة إلى العديد من الموضوعات الأخرى. ويكتب «إدوارد سعيد» (عالم أمريكى ذو أصول عربية، وأستاذ بجامعة كولومبيا) فى مقدمته لكتاب «شاحاك»:

«بوصفه أحد ضحايا الهولوكست، وأحد الناجين منها، فهو يعلم معنى معاداة السامية، ولذلك - على عكس الكثيرين - فهو لا يسمح للرعب الناتج عن

الهولوكست بأن يتلاعب بالحقيقة بمثل ما فعلت - باسم الشعب اليهودى - إسرائيل فى الفلسطينيين. بالنسبة إليه، المعاناة ليست احتكاراً خالصاً لمجموعة واحدة من الضحايا، وينبغى لها (المعاناة) بدلاً من ذلك - على الرغم من ندرة فعلها لذلك - أن تصبح القاعدة لإضفاء الإنسانية على الضحايا، جاعلة من الملزم لهم ألا يتسببوا فى معاناة من نوع المعاناة التى تعرضوا لها» (١).

وأتفق مع هؤلاء القائلين: إن إسرائيل قائمة كدولة ديموقراطية، ويبدو هيكلها الخارجى الأساسى ديموقراطيّا بوضوح، وعلى الأقل فإن الانتخابات حرة؛ لكن من المهم مع ذلك أن نميط اللثام عن بعض الاعتبارات الجوهرية فى قانون دولة إسرائيل؛ لتمييز النموذج الإسرائيلى عن الآخرين بما فيهم النموذج القانونى الخاص بنا، فعلى سبيل المثال كونك يهوديّا، يضفى فارقًا فى العديد من مظاهر الحياة الإسرائيلية.

«وعندما قامت أقلية صغيرة من يهود إسرائيل فى بواكير الثمانينيات بمعارضة ذلك المفهوم، تم إقرار قانون دستورى (ويعنى: القانون الذى يتجاوز قيود قوانين أخرى، ولا يمكن إبطاله إلا من خلال سلسلة إجراءات خاصة) فى عام ١٩٨٥م بأغلبية ساحقة داخل الكنيست، لا يسمح - بقوة هذا القانون - بالاشتراك فى انتخابات الكنيست لأى حزب يملك برنامجًا يعارض بوضوح مبدأ الوطن اليهودى، أو يقترح تغيير ذلك المبدأ بالوسائل الديموقراطية» (٢).

«ووفقا للقانون الإسرائيلى، يعتبر المرء «يهوديّا» إذا كانت أمه وجدته وأم جدته وجدة جدته يهوديات الديانة، أو إذا تحول الشخص إلى اليهودية بأسلوب مقبول لدى السلطات الإسرائيلية، وعلى شرط ألا يكون الشخص قد تحول من اليهودية إلى ديانة أخرى» (٣).

وتمارس دولة إسرائيل التمييز العنصرى بشكل رسمى لصالح اليهود وضد غير اليهود فى مختلف أوجه الحياة، ومن بينها ثلاثة يحظون بأهمية قصوى: حقوق الإقامة، وحق العمل، وحق المساواة أمام القانون، ويقوم التمييز العنصرى فى الإقامة على أساس حقيقة أن ٩٢٪ من أراضى إسرائيل هى فى ملكية

(١) إسرائيل شاحاك: تاريخ اليهود. ص ١١/ ١٩٩٧م.
(٢) المصدر السابق. ص ٣. (٣) المصدر السابق. ص ٤.

الدولة، وتتولى إسرائيل إدارتها عن طريق «مؤسسة الأرض» طبقًا للتعليمات المصدرة من قبل «صندوق التمويل القومى اليهودى» (JNF)، وهو فرع «للمنظمة الصهيونية العالمية» [1].

والدلائل على التمييز العنصرى ضد الفلسطينيين كانت واضحة منذ الأيام الأولى لعمليات إخلاء الأراضى والمستمرة ليومنا هذا من قبل الحكومة الإسرائيلية، وأجبرت المستشفيات الفلسطينية على إقامة مقابر جماعية فى أماكن انتظار العربات الخاصة بها؛ لأنه وحسب المعتاد، فقد ضيقت القوات المسلحة الإسرائيلية الخناق عليهم داخل جيوب للحياة - وهى تقنية منقولة عن نظام جنوب أفريقيا للفصل العنصرى. ويقوم الدعم الإسرائيلى الصريح، بالتعاون مع حكومة الفصل العنصرى السابقة كدليل على معاملتها لغير اليهود، وتحاط جيوب اللاجئين الفلسطينيين (مسلمين ومسيحيين) بالطرق الالتفافية العسكرية التى لا يتمكنون من استعمالها؛ والنتيجة الآن ظهور «كانتونات» للاجئين داخل المناطق المحتلة، تسيطر عليها أهواء ورغبات ثالث أكبر جيش فى العالم، ومن أكثرها عصرية بالنسبة إلى دولة فى حجم «چيرسى». وبنظرة خاطفة على خرائط الأراضى قبل غزو ٢٠٠٢م، تظهر جيوب الحياة المدنية (كانتونات) محاطة بالطرق الالتفافية العسكرية المحظور السير بها، لا وجود لاقتصاد للشعب الفلسطينى، ولا لمرافق صحية، ولا لماء نقى، ولا لمدارس. إنهم محشورون للحياة فى أحياء ومخيمات لاجئين مزدحمة وقذرة، مع توافر وسيلة وحيدة تساعدهم على التقدم ألا وهى الإحباط، ويقف على النقيض من مبادئنا كأمة، أن ندعم نظمًا لها هذه الممارسات الظالمة والإجرامية.

التداعيات داخل الوطن

كان فى نية «هوسيه ماس كانوسا» مؤسس «المنظمة القومية للكوبيين الأمريكيين» (CANF) أن تتأسس مجموعته للمصالح هذه على غرار نموذج «لجنة الشئون العامة للإسرائيليين الأمريكيين» (AIPAC)، وكان «كانوسا» يوقر (AIPAC) لنجاحها فى احتكار سوق الأفكار عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، وصمم «ماس كانوسا» على الإطاحة بحكومة الرئيس «فيدل كاسترو» من خلال التحالفات السياسية، وإجراءات الحكومة الأمريكية.

(١) المصدر السابق. ص ٥.

لقد حد النجاح والأموال اللذان لمجموعة المصالح الإسرائيلية من حريتنا على إجراء حوار هنا داخل الولايات المتحدة بشكل يفوق نظيره داخل إسرائيل، والانحياز واضح فى الصحف وأيضًا فى التليفزيون، وتتفوق صحيفة «نيويورك تايمز» بشكل محسوس فى تأييد إسرائيل عن الإعلام داخل إسرائيل، وعلى الأخص لمصادر مثل صحيفة «ها آرتز»، هناك حوار أكثر انفتاحًا داخل الكنيست (البرلمان الإسرائيلى) عن الموجود داخل مجلسى الكونجرس، وحتى عند الإشارة من بعيد إلى الحاجة إلى التعامل مع إسرائيل بنفس أسلوب التعامل مع أية دولة أخرى (وفقًا للقانون الدولى)، عندها تبدأ بسرعة فى فَقْد الأصدقاء من بين المشرّعين، وفَقْد المساهمين فى الحملات الانتخابية.

ولقد نما فى آخر الأمر «ماس كانوسا» وحركة الجناح اليمينى التابعة له، إلى حد السيطرة على الحوار حول كوبا، وإلى حد تشكيل السياسة الخارجية للولايات المتحدة من خلال التبرعات الهائلة لأعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ. إصلاح أسلوب تمويل الحملات الانتخابية هو الطريق الوحيد لمحاربة مثل هذا النشاط غير الديموقراطى، وما يحدث هو أن الأشخاص الأثرياء يحصلون على السياسة التى يريدونها عن طريق تمويلهم لرجال السياسة، ويجب أن نعرف ما هو الشىء الأكثر تناقضًا مع الأمريكية من ذلك؟ ينبغى تقييد الأموال الباهظة التى تذهب إلى إسرائيل (ما يقارب ١٥ مليون دولار يوميًا من أموال الضرائب الأمريكية)، بحيث يُعاد توزيعها على المشروعات التى تؤثر بالفعل على المواطنين الأمريكيين.

وبحسب «إدوارد سعيد» فإن الإنجاز الأعظم لمجموعة الضغط الإسرائيلية كان هو «صهينة» الإعلام الأمريكى، عندما يوجب الأمر عرض الموقف الفلسطينى، فنحن الأمريكيين ندفع إلى الاعتقاد بالجدل الزائف المستمر بدون أى حق فى التفنيد.

وأى شخص ينتقد دولة إسرائيل بشكل علنى سريعًا ما ينعت بأنه «معاد للسامية»، (ولم تعد اللغة العربية - بطبيعة الحال - تعتبر لغة سامية بعد الآن)، أو ينعت باليهودى الكاره لنفسه، أو إذا كنت تعمل فى مجال التاريخ وتعترض على تفسير الحكومة الإسرائيلية لتاريخ اليهود، عندها أنت ببساطة من «المراجعين»، ومن ضمن هؤلاء الذين استبعدوا من التيار السائد للنقاش، نتيجة لوجهات

نظرهم، هناك «إسرائيل شاحاك»، والحاخام «مايكل ليرنر»، و«آفي شاليم»، و«نعوم تشومسكي». وتكلفة هذا الإقصاء المعلوماتي على حساب دافع الضرائب الأمريكي بلغت ٩٢ بليون دولار أمريكي على شكل مساعدات بدون مقابل منذ عام ١٩٦٧م منذ أن أنشئت إسرائيل عام ١٩٤٨م.

ورافقت ذات مرة الدكتور «ماهر حتحوت» إلى محاضرة في الجامعة اليهودية في لوس أنجلوس حيث استقبل بصيحات المتطرفين من الحضور، خلال المحاضرة وكل بضع دقائق، يهب واحدٌ من الحاضرين صارخًا في وجه حتحوت مطلقًا عليه نعت «قاتل الأطفال»، و«كاره اليهود». كان «إيرف روبين» عضو «عصبة الدفاع اليهودي» من حفنة الحاضرين الذين تطايرت من أفواههم التعليقات دون روية.

وكان واضحًا من رد فعل اليهود الآخرين داخل المحاضرة أن «روبين» كان رجلاً لا تحظى وجهات نظره بالقبول العام، ثم تم طرد كل أصحاب ضجة الأسئلة في تلك الليلة، واختفت المشاكل، واستمر دكتور حتحوت منذ ذلك الوقت في تدريس مناهج عن الإسلام في الجامعة.

عثرت خلال السنة الأولى لي في كلية الحقوق، على قضية في كتاب قضايا القانون الجنائي «الشعب ضد روبين ١٩٧٩م»، تدور حقائق القضية حول احتفال أقامته منظمة «كلوكلوكس كلان» (*) داخل مدينة ذات أغلبية يهودية، وألقى السيد «روبين» بخطاب أسيء فهمه على أنه إغواء بالقتل. لقد فكرت عند هذه النقطة في أن المرء يمكنه أن يمنح السيد «روبين» حق «الشك يفسر لصالح المتهم»، قائلا إنه كان يتحدث تحت وطأة «الحرارة العاطفية» مطلقًا التعليقات الملغومة التي يمكن إساءة فهمها، ثم اطّلعت على فقرة أوردها الكاتب عن أنه قد سبق استجواب السيد «روبين» في التحقيقات المتعلقة بمقتل «ألكس أوده» (عضو لجنة مقاومة التمييز العنصري للأمريكيين العرب)، وعندما حضر السيد «روبين» ذات مرة إلى المركز الإسلامي لجنوب كاليفورنيا صائحًا وصارخًا على الباب الخارجي، وباحثًا عن إثارة معركة بالأيدي مع شخص ما، تذكرت ما قيل لي عن «أوده»، وكنت ميالاً إلى عدم تصديق الأخ الذي حكى لي قصة «روبين» مع «أوده»، نتيجة لكراهيتي الطبيعية تعلمت بعدها وبقليل من معرفة القانون، أن أصدق كتاب القضايا.

(*) جمعية سرية أمريكية نشأت بعد الحرب الأهلية لترسيخ سيطرة البيض على السود. المورد ـ المترجم.

وقبل أن أستطرد فى هذه القصة، دعونى أخبركم بشىء يعتبر من المعلومات العامة بين هؤلاء الذين أعرفهم تمام المعرفة، لم أكن أعتقد بقدرة «روبين» على فعل أى شىء إلا الكلام، ودائمًا ما كنت أتندر مع الآخرين حوله عندما يظهر متحدثًا عن إيذاء شخص ما، لكننى أضع فى اعتبارى نصيحة رجال الشرطة؛ إذا كانت التهديدات تتسم بالعمومية، فغالبًا ما أنها لا تعنى الكثير.

ذات ليلة، وأثناء محاضرة مرهقة عن إيقاع الضرر المقصود أو غير المقصود بممتلكات الآخرين أو سمعتهم، تلقيت مكالمة تليفونية من لوس أنجلوس، ولقد ألقى القبض على «إيرف روبين» وآخرين من «عصبة الدفاع اليهودية» عقب تآمرهم على تفجير بعض المواقع ومن بينها مكتب عضو الكونجرس «داريل عيسى»، ومكتب «مجلس الشئون العامة للمسلمين»، ومسجد منطقة لوس أنجلوس، والذى كشفه شرطى متخف، إنهم إرهابيون، وعدم الموافقة من جانب أى شخص، تعنى أنه يكيل بمكيالين.

هذه هى مؤامرة الإرهاب المدنى ذات الحضور المستمر: الأشخاص الذين تتولى منظمات تمويلهم من أجل مهاجمة وتهديد هؤلاء المنغمسين فى حوار يناقض الأيديولوچية السائدة الداعمة للصهيونية، ويمثل ذلك تهديدًا مدنيًا، وهى تؤثر على أمن الأمريكيين داخل وطننا، ويتعرض قطاع من قطاعات التعددية الأمريكية (المسلمين) للإرهاب، ولا تشعر محطات التليفزيون القومية بالحاجة للإعلام بهذه المواقف، لا يوجد فرق بين «إيرف روبين» وصاحب الحذاء المفخخ «ريتشارد ريد».

آرييل شارون

يمثل «شارون» وجه الإرهاب المدعوم بالدولة، وبمشيئة الله سوف يقدم للعدالة يومًا ما للمحاكمة على جرائم الحرب التى اقترفها خلال ما يزيد على الثلاثين عامًا الأخيرة، ولكى نفهم ما سبق، فمن الضرورى إبراز الأفعال الإسرائيلية فى جنوب لبنان من خلال كلمات «آڤى شاليم» لإلقاء نظرة خاطفة على شارون (البلدوزر كما يحلو لرفاقه تدليله). عقب اغتيال «بشير الجميل» (الزعيم المسيحى للكتائب المؤيدة لإسرائيل) فى ١٤ سبتمبر ١٩٨١م، على الأرجح بواسطة المخابرات السورية،

وصلت سياسة «آرييل شارون» فى لبنان بمجملها إلى طريق مسدود ، و كان الاغتيال هو الذريعة المطلوبة للغزو العسكرى : «أصدر شارون أوامره لقادة جيش الدفاع الإسرائيلى (IDF) بالسماح لأفراد الكتائب بالدخول إلى مخيمى اللاجئين الفلسطينيين - صابرا وشاتيلا - الواقعين إلى الجنوب من بيروت ، من أجل تنظيف الإرهابيين الذين - وفق ادّعائه - كانوا يكمنون هناك ، و ارتكب رجال الميلشيات المسيحية المتعطشة للانتقام داخل المخيمين مذبحة رهيبة ؛ حيث قتلوا المئات من الرجال والنساء والأطفال ، وقدرت إسرائيل أعداد القتلى بحوالى سبعمائة إلى ثمانمائة قتيل ، بينما قدر الهلال الأحمر الفلسطينى بما يربو على الألفين . . . . وقد وصلت شواهد المذبحة إلى الجنود الإسرائيليين الذين لم يفعلوا شيئًا لإيقافها ، وقد أجبر الشعور بالصدمة والاشمئزاز داخل إسرائيل ، والاحتجاج الدولى العارم ، الحكومة الإسرائيلية على تعيين لجنة تحقيق برئاسة و إشراف «يتزاك كاهان» قاضى المحكمة العليا» [١] .

قدمت لجنة كاهان تقريرها فى ٧ فبراير ١٩٨٣م ، وقد توصلت فى تقريرها إلى : تحمل إسرائيل مسئولية غير مباشرة عن مذبحة صابرا وشاتيلا ، بالقدرنفسه التى تتحمله الكتائب التى دخلت مخيمى اللاجئين بعلم الحكومة وبتشجيع من الجيش ، وأوصت بإقالة وزير الدفاع (آرييل شارون) وعدد من كبار الضباط من مناصبهم . وأعلن «شارون» فى الحال عن رفضه لما توصلت إليه لجنة «كاهان» ، ورفضه لتوصياتها أيضًا . وقرر مجلس الوزراء فى ١٤ فبراير الموافقة على توصيات تقرير «كاهان» بأغلبية ستة عشر صوتًا ضد صوت واحد وهو صوت شارون [٢] .

وقد تواصل الجدل أنه بمجرد الانتهاء من سحق منظمة التحرير الفلسطينية (PLO) فى مكمنها فى لبنان ، فإن ذلك سوف يضع النهاية لكل فعاليات المقاومة الفلسطينية لفرض الحكم الإسرائيلى الدائم فى الضفة الغربية وقطاع غزة [٣] .

هذا هو السبب وراء أن التفجيرات الاستشهادية - بغض النظر عن الاعتبارات

---

(١) آفى شاليم : الحائط الحديدى . ص ٤١٦ / ٢٠٠٠م .
(٢) المصدر السابق . ص ٤١٧ .
(٣) المصدر السابق . ص ٤٢٢ .

الجدية المعنوية والأخلاقية المتعلقة بها ـ تمثل أداة عسكرية قليلة الجدوى فى الثورة ضد الاحتلال الإسرائيلى. إن الهجمات الحالية على الأراضى الفلسطينية بما فيها من مخيمات للاجئين مثل مخيم «جنين»، هى ثمار لخطة شارون المعدة سلفًا (منذ ما يزيد على ثلاثين عامًا) والهادفة إلى تهجير الفلسطينيين مما تبقى من أراضيهم، تلك هى الأيديولوچية التى أقام على أساسها مجمل مساره العسكرى والسياسى.

والحركة الأولى من المشهد الأول من هجوم شارون الحالى على الشعب الفلسطينى والذى أعد سلفًا، كان فى استعراضه للقوة عند دخوله إلى الحرم الشريف مصحوبًا بما يزيد على ألف جندى إسرائيلى، منذ ذلك اليوم فى سبتمبر عام ٢٠٠٠م، استمر حشر الفلسطينيين بواسطة الجيش الإسرائيلى فيما لا يقل عن ٢٢٠ جيتو (مناطق عزل) مقطعة الأوصال، بالإضافة إلى تعرضهم إلى فترات دورية بطريقة منهجية من حظر التجول، والتى غالبًا ما تستمر لأسابيع قبل انتهائها، ولا يتمكن أى شخص من الحركة، سواء أكان شابًا أم عجوزًا، مريضًا أم صحيحًا، يعالج سكرات الموت أم امرأة حامل، طالبًا أم طبيبًا بدون أن تمضى عليه الساعات داخل مناطق فاصلة يشرف عليها ضباط من الجيش الإسرائيلى يتميزون بالوقاحة وفى الأغلب بالوحشية. ومنذ مايو ٢٠٠١م، تقوم طائرات إف ـ ١٦ الإسرائيلية بقصف وإخلاء المدن والقرى الفلسطينية بشكل منتظم، مخلفة الدمار للممتلكات والقتلى من المدنيين وقوى الأمن، واستخدمت الطائرات المروحية الهجومية من طراز «أباتشى» وصواريخها فى قتل المئات من القادة الفلسطينيين المنتخبين ديموقراطيًا، بحجة هجمات إرهابية حدثت فى الماضى أو قد تحدث فى المستقبل.

وما زالت إسرائيل متورطة فى احتلال عسكرى غير شرعى منذ عام ١٩٤٨م، وهو أطول احتلال من هذا النوع فى التاريخ، وهو الوحيد فى العالم بأجمعه فى الوقت الحالى. لا وجود لنظير فى تاريخ الاحتلال للحصار الإسرائيلى الإجرامى لما يبلغ ١,٣ مليون شخص فى قطاع غزة، وحشرهم مثل السردين وإحاطتهم بسور من الأسلاك الشائكة، ومثل ذلك مع ٢ مليون شخص فى الضفة الغربية، مع السيطرة والتحكم فى نقاط دخولهم وخروجهم بواسطة جيش «الدفاع» الإسرائيلى، وتصاعد مستوى هذا العنف المستمر بشكل كبير تحت شعار «محاربة الإرهاب» منذ الحادى عشر من سبتمبر.

ووفقا للمؤرخة « كارين أرمسترونج » (كانت راهبة كاثوليكية لعقد كامل من حياتها) فإن الدخول الأول للمسلمين إلى القدس قد حدث بعد سنوات ست من وفاة الرسول محمد ﷺ عام ٦٣٨ بعد الميلاد، عقب دخول المسلمين بدون إراقة الدماء، قام البطريك الأرثوذوكسى اليونانى باصطحاب الخليفة المنتخب وصحابى النبى محمد ﷺ ، «عمر بن الخطاب» فى جولة حول المدينة المقدسة . طلب البطريرك من عمر عند رؤيته لقبر عيسى - عليه السلام - أن يصلى عنده لكن الخليفة رفض، وبدلاً من ذلك فقد سار الخليفة إلى منتصف الشارع وبدأ فى صلاته، وكان تفسير عمر لذلك، أنه لو لبَّى رغبة البطريرك فقد يستغل ذلك فى المستقبل كذريعة لتضليل المسلمين للمطالبة بهذا المكان باعتباره يخصهم، وفى ذلك مخالفة للشريعة، حيث يتوجب السماح للمسيحيين (وغيرهم) بحرية العبادة وحرية إقامة الشعائر الدينية الجماعية فى أماكنهم المقدسة، وطلب عمر بعدها رؤية جبل المعبد - الذى يعرف الآن بـ «الحائط الغربى» بين اليهود - وكانت مفاجأة له فى رؤيته يُستخدم كمقلب لنفايات المدينة فى ذلك الوقت، وبدأ الخليفة مستخدمًا يديه فى التخلص من النفايات للتأكيد على أن قانون حرية الاعتقاد ينبغى تطبيقه على مستوى كونى .

ويقدم كثير من اليهود تفسيراً بأنهم ينتظرون عودة المسيح، وأنه لا قيمة لجبل المعبد إلى ذلك الحين . وقد رحب بعض حاخامات اليهود بإجراءات الخليفة عمر فى ذاك الوقت، معتبرين المسلمين هم المبشرين بقرب ظهور المسيح .

ولأول مرة فى القدس يصبح اليهود مواطنين، وجلب عمر المئات من العائلات اليهودية للإقامة فى المدينة المقدسة . ويعود اعتبار القدس كمدينة مقدسة للمسلمين إلى زمن النبى ﷺ حين كان الناس يصلون فى اليوم مرات خمس مولين وجوههم شطر القدس، وبهذا الأسلوب كانت ظهورهم تجاه أصنام مكة، وكانت وجوههم تجاه أرض أهل الكتاب . ينبغى أن تصبح القدس أرضًا مقدسة حرة للأجيال القادمة لا يمكن للإسرائيليين أو للشعب الفلسطينى السيطرة عليها،

وسوف يأتى جشعهم فى المقدمة دائمًا، وسوف يعانى العباد من الوصول المقيد إلى أماكنهم المقدسة.

* * *

الخلاصة

بعد انصرام ما يزيد عن عقد من مفاوضات السلام العقيمة، يعانى ٥٠٪ من الفلسطينيين من البطالة، ويعيش ٧٠٪ منهم فى فقر على أقل من دولارين فى اليوم.

والتفاوت فى القوة بين الإسرائيليين والفلسطينيين يعكس نفسه على المفاوضات بين الطرفين، وقد نشأت المزيد من المستوطنات خلال فترة «إيهود باراك» كرئيس وزراء عنها فى وقت سلفه «بنيامين نتنياهو»، ويمثل ذلك أهمية ؛ لأن «إيهود باراك» يمثل المعتدلين بين السياسيين الإسرائيليين، وفى كل وقت كان فيه «عرفات» جالسًا على مائدة المفاوضات مع زعيم إسرائيلى، بما فيهم «رابين» (الذى اغتاله إرهابى يهودى)، يشكل رؤساء مثل «نتنياهو» و«شارون» عائقًا لمفاوضات السلام، وازدادت تحت شعار «السلام» المصادرات، وتفجير المنازل خلال إدارات رابين، وبيريز، ونتنياهو، وباراك، بالترافق مع التوسع والتضاعف فى المستعمرات غير الشرعية.

وينبغى اختفاء إسرائيل المستعمرة الاستيطانية التى هى نتاج لاستعمار فى أسوأ صوره، بقدراتها من الأسلحة النووية، وبأفعالها وسياساتها التى لا تتبدل والتى تتجاوز وتعلو على القانون الدولى. ويتوجب ازدهار إسرائيل الديموقراطية التى تحترم حقوق الإنسان لجميع سكانها بغض النظر عن اللون أو العقيدة، والتى لا تتصرف كدولة فصل عنصرى، هذا هو طريق حلول السلام فى منطقة عاشت بالسلام أكثر مما عاشته فى مشاكل.

وفى الوقت نفسه، فقد موّلت حكومتنا الظلم المستمر لشعب لمدة تزيد على ٥٥عامًا بدون تراجع، وإننى أصلى من أجل أن يطبق زعماؤنا حملات تمويل إصلاحية وجادة، تضع حدًا لسيطرة جماعات ضغط المصالح الخاصة للأغنياء فى السياسة الإسرائيلية مثلها مثل الآخرين، وسوف توضح سياسات أمتنا يومًا ما للعالم حولنا أننا نؤمن بأنهم يستحقون أيضًا الحريات التى نتمسك بها بحب جارف.